تَعْليمُ أَلْمُتَعَلِّمِ طَرِيقَ أَلتَّعَلُّمِ

تاليفْ أَلْعَلْامَةِ بُرْهَانُ أَلدين أَلزَّرْنُجيّ

أَلْمُتَوَفِّي سَنَة ٥٩١ هـ

تعليم المتعلمَ طريق التعلم

للعلامة الامام برهان الدين الزرنوجي

(المتوفي سنة ٥٩١ هـ)

أعداد وتقديم

دانا البرزنجي

في المديرية العامة للمكتبات العامة اعطيت له رقم ايداع (١٠٤) لسنة ٢٠٢٢م.

التقديـم

بسم الله الرحمان الرحيم ، والحمد لله رب العالمين ، والصلاة و السلام على نبينا محمد وعلى اله وصحبه اجمعين ،

هذا الكتاب العظيم ، الجامع ، الماتع ، الذي فيه الفوائد الجمة لكل المسلمين عامة و للطلبة العلم خاصة ، وهذا الكتاب على اختصاره ولاكن جمع الله تبارك وتعالى لمؤلفه فيه العلوم الجمة و لا غنى لاي طالب عنه .

الامام برهان الدين او برهان الإسلام الزرنوجي المتوفي سنة ٥٩١هـ في «زرنوج» ، فيما وراء "أوزجند" في تركستان تتلمذ على يد صاحب كتاب "الهداية في فروع الفقه" لبرهان الدين علي بن أبي بكر الفرغاني المرغيتاني، الذي توفي

عام ٥٩٣هـ والذي يعتبره الزرنوجي في كتابه أستاذاً له. كما يذكر الامام الزرنوجي أن فخر الإسلام الحسن ابن منصور الفرغاني، قاضي خان المتوفي عام ٥٩٢هـ كان شيخاً له.

وتُرجِمَ الكتاب الذي عرض فيه المؤلف خلاصة فكر عصره الدينية والفقهية والتربوية الى اللغات التركية واللاتينية والروسية وغيرها. وقد أنتفع بهذا الكتاب جميع الامة حتى غير المسلمين انتفعوا به ، فهذا الكتاب طبع في المانية و درس ايظاً ،
أسهم الامام العلامة الزرنوجي في إغناء الفكر التربوي العربي الإسلامي، و لقد حظي هذا الكتاب بعناية كبار المربين المسلمين، فنشروه وعلقوا عليه ، واضطلعت آراءه التربوية بدور مهم في ظهور المدارس التربوية اللاحقة التي لا تقل شأناً عن النظريات التربوية الحديثة .

وسيدنا الامام قسم الكتاب الى ثلاثة عشرة فصلا و هذا التقسيم عظيم ومفيد لطلاب العلم فاذا اراد الطالب ان يصل الى شئ من هذا الكتاب وصل اليه بسهولة ويسر فالكتاب بمقدمة وثلاثة عشرة فصلاً ،

وسيدنا الامام لم يطول في المقدمة واختصرها واراد اختصار هذا الكتاب لكي يُخفَض وقال في سبب تاليف هذا الكتاب انه رأى طلاب العلم يَجِدّون ولايصلون ومن ثمرات العلم ومنافعه يُحرَمون فهذا هو السبب لتاليفه الكتاب .

يُنصح به : كل مشتغل بمجال التربية والتعليم، وكل مهتم بشؤون التربية في الإسلام . وهذا الكتاب منهجية عظيمة لجميع الطلاب وهو القاعدة التي ينطلق بها ومنها الطالب الى مبتغاه فهو كتاب لابد منه لكل طالب العلم والذين فاتهم

هذا الكتاب لابد من العودة اليه ولابد من اقتنائه ولابد من دراسته بتمعن ، و نأسالكم الدعاءِ لنا ،

و من الله التوفيـق .

شيـخ دانــا البرزنجي حفيـد العلامة شيـخ عبدالكريم البرزنجي المدرس،أستاذ مَولانا خالِد النَقشَبَندي.

نَص كِتـاب

(تعليم المتعلم طريق التعلم)

تأليِف العَلامَة بُرهان الدِين الزرنوجي

المتوفي سنـة ٥٩١ هـ

المقدمة

الحمدُ لله الذي فَضَّلَ بني آدم بالعلم والعَمَلِ على جميع العالَمِ، والصلاة والسلامُ على محمد سيد العَرَبِ والعجمِ ، وعَلى آلهِ وأصحابِهِ ينابيعِ العُلُمِ والحِكمِ .

وبَعْدُ

فلما رأيتُ كثيراً من طلاب العلم في زماننا يجدُّون الى العلم ولايصلون [ومن منافعه وثمراته – وهي العمل به والنشر – يحرمون] لما انَّهم أخطأوا طريقهُ وتركوا شرائطه ، وكل من أخطأ الطريقَ ضَلَّ ، ولا ينال المقصودَ قَلَّ او جَلَّ ، فأردتُ وأحببتُ أن أبيّنَ لهم طريق التعلم على ما رأيتْ في الكتبِ وسمعتُ من أساتيذي أولي العِلْمِ والحِكَم ، رجاءَ الدعاءِ لي من

الراغبين فيه ، المخلصين ، بالفوز والخلاص في يوم الدين ، بعدما استَخَرْتُ الله تعالى فيه ، وسمّيته :

(تعليم المتعلم طريق التعلم)

وجعلته فصولاً :

١- فَصْل : في ماهِيّةِ العلمِ ، والفِقْهِ ، وفَضْلِه .

٢- فَصْل : في النيةِ في حالِ التَعَلُّم .

٣- فَصْل : في اختيارِ العِلْمِ ، والأستاذِ ، والشريكِ ، والثّبات .

٤- فَصْل : في تعظيمِ العِلْمِ وأهْلِهِ .

٥- فَصْل : في الجِدِّ والمواظبةِ والهِمَّةِ .

٦- فَصْل :في بدايةِ السَّبْقِ وقَدرِهِ وترتيبه .

٧- فَصْل : في التَّوكُّل .

٨- فَصْل : في وقتِ التَّحصيل .

وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .

فصل

في ماهيّـة العلم ، والفقـه ، وفضُله

قال رسول الله (صل الله عليه وسلم) :

(طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة) .

اعلم :

بأنه لا يفترض على كل مسلم ، طلب كل علم ، وإنما يفترض عليه طلب علم الحال كما يقال :

(وأفضل العلم علم الحال ، وأفضل العمل حفظ الحال).

ويفترض على المسلم طلب ما يقع له في حاله ، في أي حال كان ، فإنه لا بُدَّ له من الصلاة فيفترض عليه علم ما يقع له في صلاته بقدر ما يؤدي به فرض الصلاة ، ويجب عليه بقدر ما يؤدي به الواجب ، لأن ما يُتوسل به إلى إقامة الفرض يكون فرضاً ، وما يتوسل به إلى إقامة الواجب يكون واجباً .

وكذلك في الصوم ، والزكاة ، إن كان له مال ، والحج إن وجب عليه .

وكذلك في البيوع إن كان يتّجر .

قيل لمحمد بن الحسن ، رحمة الله عليه : لما لا تصنّف كتاباً في الزهد ؟

قال : قد صنّفت كتاباً في البيوع ، يعني : الزاهد من يحترز عن الشبهات والمكروهات في التجارات .

وكذلك في سائر المعاملات والحِرف ، وكل من اشتغل بشئ منها يُفترض عليه عِلْمُ التحرز عن الحرام فيه .

وكذلك يُفترض عليه علمُ أحوال القلب من التوكل والإنابة والخشية والرضى ، فإنه واقع في جميع الأحوال .

وشَرَف العلم لا يَخْفَى على أحدِ إذ هو المختَصُّ بالإنسانية لأن جميع الخصال سوى العلم ، يَشْتَرِكُ فيها الإنسانُ وسائر الحيوانات : كالشجاعة والجراءة والقوة والجود والشفقة وغيرها سوى العلم .

وبه أظهر الله تعالى فضل آدم عليه السلام على الملائكة ، وأمرهم بالسجود له .

وإنما شَرُفَ العلم بكونه وسيلةً إلى (البر) والتقوى ، الذي يستحق بها المرء الكرامةَ عند الله ، والسعادة الأبدية ، كما قيل لمحمد بنِ الحسن ، رحمة الله عليهما شعراً :

تَعَلّم فإن العلمَ زينٌ لأهلهِ

وفَضْلٌ و عُنوانٌ لِكُلّ المحامِدِ

وكُنْ مستفيداً كلَّ يوم زيادةً

من العلمِ واسبحْ في بُحورِ الفوائِدِ

تفقّه فإن الفِقْه أفضلُ قائد

إلى البِرّ والتقوى وأعدلُ قاصِدِ

هو العَلَمُ الهادي إلى سُنَن الهُدى

هو الحِصْن يُنجي من جميع الشدائدِ

فإن فقيهاً واحداً متورعاً

أشدُّ على الشيطانِ من ألفِ عابِدِ

(والعلم وسيلة إلى معرفةِ : الكبر ، والتواضع ، والألفة ، والعفة ، والاسراف ، والتقتير ، وغيرها) ، وكذلك في سائر الأخلاق نحو الجود ، والبخل ، والجبن ، والجراءة .

فإن الكبر ، والبخل والجبن والإسراف حرام ، ولا يمكن التحرز عنها إلا بعلمها ، وعلم مايُضَادها ، فيفترض على كل مسلم علمها .

وقد صنّف السيد الإمام الأجل الأستاذ الشهيد ناصر الدين أبو القاسم كتاباً في (الأخلاق) ونعم ما صنّف ، فيجب على كل مسلم حفظهـا .

وأما حفظ ما يقع في الأحايين ففرض على سبيل الكفاية ، إذا قام البعض في بلدة سقط عن الباقين ، فإن لم يكن في البلدة من يقوم به أشتركوا جميعاً في الأثم ، فيجب على الإمام أن يأمرهم بذلك ، ويجبر أهل البلدة على ذلك .

قيل : إن علم ما يَقَعُ على نفسه في جميع الأحوال بمنزلة الطعام لابد لكل واحد من ذلك .

وعلم ما يقع في الأحايين بمنزلة الدواء يحتاج اليه (في بعض الأوقات) .

وعلم النجوم بمنزلة المرض ، فتعلمه حرام ، لأنه يضر ولا ينفع ، والهرب عن قضاء الله تعالى وقدره غيرُ ممكن .

فينبغي لكل مسلم أن يشتغل في جميع أوقاته بذكر الله تعالى والدعـاء ، والتضرع ، وقراءة القرآن ، والصدقات [الدافعة للبلاء] والصلاة ، ويسأل الله تعالى العفو والعافية في الدنيا والآخرة ليصون الله عنه تعالى البلاء و الآفات ، فإن من رُزق الدعاء لم يحرم الإجابة.

فإن كان البلاء مقدراً لا محالة ، ولكن يبر الله عليه ويُرزقه الصبر ببركة الدعاء .

اللهم إذا تَعلّم من النجوم قدر ما يعرف به القبلة ، وأوقات الصلاة فيجوز ذلك وأما تَعَلّم علم الطب فيجوز ، لأنه سبب من الأسباب فيجوز تعلمه كسائر الأسباب .

وقد تداوى النبي عليه السلام ،

وقد حُكي عن الشافعي رحمة الله عليه أنه قال :علم الفقه للأديان ، وعلم الطب للأبدان ، وما وراء ذلك بُلْغَة مجلس .

وأما تفسير العلم : فهو صفة يتجلّى بها المذكور لمن قامت هي به كما هو .

والفقه : معرفة دقائق العلم مع نوع العلاج .

قال ابو حنيفة رحمة الله عليه : (الفقه معرفة النفس ما لها وما عليها) .

وقال :(ما العلم إلا للعمل به ، والعمل به ترك العاجل للآجل).

فينبغي للإنسان أن لا يغفل عن نفسه ، ما ينفعها وما يضرها ، كي لا يكون عقلُهُ وعلمه حجة عليه فيزداد عقوبة ، نعوذ بالله من سخطه وعقابه .

وقد ورد في مناقبِ العلم وفضائله ، آياتٌ وأخبارٌ صحيحةُ مشهورة لم نشتغل بذكرها كي لا يطول الكتاب .

فصل

في النيّة في حال التعَلم

ثم لابد له من النية في زمان تعلم العلم ، إذا النية هي الأصل في جميع الأفعال لقوله عليه السلام : (إنما الأعمالُ بالنيات) حديث صحيح .

[روى] عن رسول الله – صل الله عليه وسلم – :(كم من عمل يتصور بصورة عمل الدنيا ، ثم يصير بحسن النية من أعمال الآخرة ، وكم من عمل يتصور بصورة عمل الآخرة ثم يصير من أعمال الدنيا بسوء النية) .

وينبغي أن ينوي المتعلمُ بطلب العلم رضاءَ الله والدار الآخرة ، وإزالَة الجهلِ عن نفسِهِ ، وعن سائر الجهّال ، وإحياءَ الدين وإبقاءَ الإسلام ، فإن بقاءَ الإسلام بالعلم ، ولا يصح الزهد والتقوى مع الجهل .

وأنشدنا الشيخُ الإمام الأجل الأستاذ برهان الدين صاحب (الهداية) لبعضهم شعراً :

فسادٌ كبيرٌ عالم مُتَهَتّكٌ وأكبرُ منهُ جاهلٌ متنسّكُ

هما فتنةٌ للعالمين عظيمةٌ لمن بهما في دينِهِ يتمسكُ

وينوي به : الشكرَ على نعمة العقل ، وصحة البدن ، ولا ينوي به إقبالَ الناس عليه ، ولا استجلابَ حُطامِ الدنيا ، والكرامة عند السلطان وغيره .

وقال محمد بن الحسن رحمة الله عليهما :(لو كان الناس كلهم عبيدي لأعتقتهم وتبرأت من ولائهم) . [وذلك لأن

] من وجدَ لذةَ العلمِ والعَمَلِ به ، قَلّما يرغبُ فيما عند الناس .

أنشدنا الشيخُ الإمامُ الأجلُّ الأستاذُ قِوامُ الدين حَمّاد بن إبراهيم بن إسماعيل الصفار الأنصاري إملاءً لأبي حنيفة رحمة الله عليه :

من طَلَبَ العلمَ للمَعَاد فازَ بفضلٍ من الرشادِ
فيـا لَخُسـران طالبيــه لنيلِ فَضْلٍ من العبـادِ

اللهم إلا اذا طَلَبَ الجاهَ للأمرِ بالمعروفِ والنهيَ عن المنكر .

وينبغي لطالب العلم : أن يتفكرَ في ذلك ، فإنه يتعلمُ العلمَ بجهدٍ كثير ، فلا يصرفه إلى الدنيا الحقيرة القليلة الفانية .

(قال النبي – صل الله عليه وسلم – : اتقوا الدنيا ، فوالذي نفس محمد بيده إنها لأسحر من هاروت وماروت) .

شعـر :

هي الدنيا أقلُ من القليل وعاشِقُها أذلُّ من الذليلِ

تُصِمُّ بسحرها قوماً وتُعمي فهم مُتحيّرونَ بلا دليلِ

وينبغي لأهل العلمِ أنْ لا يُذِلّ نَفْسَهُ بالطّمَع في غير المطمع ويحترز عمّا فيه مذلةُ العلم وأهله .

ويكون متواضعاً ، والتواضع بين التكبر والذلة ، والعفة كذلك ، ويعرفُ ذلك في كتاب (الأخلاق) .

أنشدني الشيخُ الإمامُ الأستاذُ ركنُ الدين المعروف بالأديب المختار شعراً لنفسه :

إنّ التواضعَ من خِصالِ المتقي

وبه التّقيُّ إلى المعالي يرتقي

ومن العجائب عُجْبُ من هو جاهلٌ

في حالِهِ أهو السعيدُ أم الشقي

أم كيفَ يُختَمُ عمرهُ أو رُوحُهُ

يَوْمَ النَّوى مُستَقّلُ أو مرتقي

والكبرياء لربنا صفةٌ لـه

مخصوصةٌ فتجنّبها واتقي

قال ابو حنيفة رحمة الله عليه لأصحابه :(عَظّموا عمائمكم ووسّعوا أكمامكم) .

وإنما قال ذلك لئلا يُستخفَ بالعلم وأهله .

وينبغي لطالب العلم أن يُحصّل كتابَ الوصية التي كَتَبها أبو حنفية رحمة الله عليه ليوسف بن خالد السمتي عند الرجوع إلى أهله ، يجدُهُ من يطلب العلم .

وقد كان أستاذُنا شيخ الإسلام برهان الدين عليٌّ بن أبي بكر قدَّس الله روحه العزيز أمرني بكتابته عند الرجوع إلى بلدي فكتبته ، ولا بد للمدرس والمفتي في معاملاتِ الناس منه . وبالله التوفيق .

فصـل

في اختيار العلم والاسُتاذ

والشريك ، والثبات.

وينبغي لطالب العلم أن يختارَ من كل علمٍ أحسَنَهُ وما يحتاجُ إليه في أمْرِ دينه في الحال ، ثم ما يحتاجُ إليه في المآل .

ويقدّم علم التوحيد والمعرفة ويعرِفَ الله بالدليل ، فإن إيمان المقلد - وإن كان صحيحاً - لاكن يكون آثماً بترك الاستدلال .

ويختار العتيق دون المحدثات ، قالوا : عليكم بالعتيق وإياكم والمحدثات ، وإياك أن تشتغلَ بهذا الجدال الذي ظَهَرَ بعد انقراضِ الأكابر من العلماء ، فإنه يُبْعِدُ عن الفقه ويُضيّع العمر ويُورثُ الوحشةَ والعداوةَ ، وهو من أشراط الساعة وارتفاعِ العلم والفقه ، كما ورد في الحديث .

- أما اختيار الأستاذ : فينبغي أن يختارَ الأعلمَ و الأورعَ و الأسنّ ، كما اختار أبو حنيفةَ ، رحمة الله عليه ، حَمّادَ بن سليمان ، بعد التأمل والتفكر ، وقال : (وجدته شيخاً وقوراً حليماً صبوراً في الأمور) .

وقال : ثَبَتُّ عند حماد بن سليمان فَنَبَتُّ ,

– وقال أبو حنيفة رحمة الله عليه :(سمعتُ حكيماً من حكماء سمرقد قال : إن واحداً من طلبة العلمِ شاوَرَني في طلبِ العلم ، وكان قد عَزَمَ على الذهاب إلى بُخارى لطَلَب العلم .

وهكذا ينبغي أن يشاورَ في كل أمر ، فإن الله تعالى أمَرَ رسولَه عليه الصلاة والسلام بالمشاورة في الأمور ولم يكن أحدٌ أفطَنَ منه ، ومع ذلك أمَرَ بالمشاورة ، وكان يُشاور أصحابَه في جميع الأمور حتى حوائج البيت .

قال علّي كرم الله وجهه :(ما هلك امروءٌ عن مشورة) .

قيل : [الناس] رجل [تام] ونصفُ رجل ، ولاشئ فالرجل : من له رأيٌ صائبٌ ويشاور العقلاء ، ونصف رجل : من له رأي صائب لكن لايشاور ، أو يشاور ولكن لا رأي له ، ولاشئ : من لا رأي له ولا يشاور) .

وقال جعفر الصادق لسفيان الثوري : (شاوِرْ في أمرك الذين يَخشَون الله تعالى) .

فطلب العلم في أعلى الأمور وأصعبها ، فكانت المشاورة فيه أهم و أوجب .

فقال الحكيم رحمة الله عليه : إذا ذهبت الى بخارى فلا تَعجَلْ في الاختلاف إلى الأئمة وامكثْ شهرين حتى تتأمل وتختار أستاذاً ،فإنك إن ذهبتَ إلى عالِمٍ وبدأت بالسَّبْقِ عنده فربما لا يُعجِبُكَ درسُه فتتركُهُ فتذهَبَ إلى آخر ، فلا يُبارَكَ لك في التعلم.

فتأمل في شهرين في اختيار الأستاذ ، وشاور حتى لاتحتاج إلى تركهِ والاعراضِ عنه فتثبتَ عنده حتى يكون تعلُّمُك مباركاً وتنتفعَ بعلمك كثيراً .

- واعلم أن الصبرَ والثباتَ أصلٌ كبير في جميع الأمور ولكنه عزيز ،

كما قيل :

لكـلّ إلـى العـلا حركــات

ولكن عزيزٌ في الرجال ثبات

قيل : ما الشجاعة ؟

[قيل]: الشجاعةُ صبر ساعة .

– فينبغي أن يثبتَ ويصبرَ على أستاذ وعلى كتابٍ حتى لا يتركه أبترَ ، وعلى فنّ حتى لا يشتغل بفن آخر قبل أن يتقنَ الأول ، وعلى بلدٍ حتى لا ينتقل إلى بلد آخر من غير ضرورة ، فإن ذلك كله يفرّق الأمور ويُشغِل القلب ويضيّع الأوقات ويؤذي المعلّم .

وينبغي أن يصبر عما تريده نفسه وهواه .

قال الشاعر :

إن الهوى لهو الهوانُ بعينه

وصريُع كل هوّى صريع هَوَانِ

ويصبر على المحن والبليات . قيل : (خزائن المنن ، على قناطير المحن) .

ولقد أنْشِدْتُ ، وقيل إنه لعليّ بن أبي طالب كرم الله وجهه شعراً :

ألا لن تنال العلم إلا بستة

سأنبئك عن مجموعها ببيان

ذكـاءٌ وحـرصٌ وبُلْغـةٌ

وإرشـادُ أستاذ وطول زمـان

وأما اختيار الشريك ، فينبغي أنْ يختار المجِدَّ والوَرِعَ وصاحبَ الطبع المستقيم المتفهم ، ويفرَّ من الكسلان والمعَطّلِ والمكثارِ والمفسدِ والفتّان . قال الشاعر :

عن المــرء لا تســل وأبصــر قرينــه

فإن القريـن بالمقارن يقتـدي

فإن كان ذا شر فجانبه سُرْعـةً

وإن كان ذا خير فقارنه تهتدي

وأنشدت شعراً آخر :

لا تصاحب الكسلانَ في حالاته

كم صالحٍ بفَسادِ آخر يَفْسُدُ

عدوى البليدِ إلى الجليد سريعةٌ

كالجمر يوضَعُ في الرماد فيخمدُ

قال النبي – صل الله عليه وسلم – :(كُلُ مولودٍ يولد على فطرةِ الإسلام ، إلا أن أبوآه يهوّدانه وينصّرانه و يمجسانه) الحديث .

ويقال في الحكمة بالفارسية :

باربد بدتر بود ازماربد   بحق ذات باك الله الصمد

باربد ازدترا سوى حجيم   بار نيكوكير نابى نعيم

وقيل :

إن كنت تبغي العلم وأهله

أو شاهداً يخبر عن غائب

فاعتبر الأرض بأسمائها

واعتبر الصاحبَ بالصاحب

فصل

في تعظيم العلم وأهله

وإعلم أن طالب العلم لا ينالُ العلم ولا ينتفعُ به إلا بتعظيم العلمِ وأهلهِ ، وتعظيم الأستاذ وتوقيره .

قيل : ما وصل من وصل إلا بالحرمة ، وما سقط من سقط إلا بترك الحُرمة .

وقيل : الحرمةُ خيرٌ من الطاعة ، ألا ترى أن الإنسان لا يكفر بالمعصية ، وإنما يكفر باستخفافها وبترك الحرمة .

ومن تعظيم العلم تعظيم لأستاذ ، قال عليّ رضي الله عنه : (أنا عبدُ من علّمني حرفاً واحداً ، إن شاءَ باع ، وإن شاء استرق) .

وقد أنشدتُ في ذلك :

رأيت أحقَّ الحقّ حقَّ المعلّم

وأوجبَه حفظاً على كل مُسلم

لقد حقَّ أن يُهدى إليه كرامةً

لتعليم حرف واحد ألف درهم

فإنَّ من علمك حرفاً واحداً مما تحتاج إليه في الدين فهو أبوك في الدين .

وكان أستاذنا الشيخ الإمام سديد الدين الشيرازي يقول : قال مشايخنا : من أراد أن يكون ابنُهُ عالماً ينبغي أنْ يراعي

الغرباء من الفقهاء ، ويكرِمَهم و يطعمَهم ويعطيَهُمْ شيئاً ، وإن لم يكن ابنه عالماً يكون حفيده عالماً .

ومن توقير المعلم أن لايمشي أمامه ، ولا يجلسَ مكانه ، ولا يبتدئ بالكلامِ عنده إلا بإذنه ، ولا يُكثر الكلامَ عنده ، ولا يسأل شيئاً عند ملالته ويُراعي الوقت ، ولا يدق الباب بل يصبر حتى يخرج الأستاذ .

فالحاصل : أنه يطلب رضاه ، ويجتنب سُخْطَه ، ويمتثل أمره في غير معصية لله تعالى ، فإنه لا طاعة للمخلوق في معصية الخالق ، كما قالَ النبي - صل الله عليه وسلم - :(إن شرَّ الناسِ من يُذهب دينَه لدنيا غيره بمعصية الخالق) .

- ومن توقيره : توقيرُ أولادِه ومن يتعلق به. وكان أستاذنا شيخُ الإسلام برهان الدين صاحبُ (الهداية) رحمة الله عليه يحكي : أن واحداً من أكابر أئمة بخارى كان يجلس مجلسَ الدرس ، وكان يقومُ في خلال الدرس أحياناً فسألوا عنه ؟

فقال : إن ابن أستاذي يلعب مع الصبيان في السكة ، ويجئ أحياناً إلى باب المسجد ، فإذا رأيتُه أقومُ له تعظيماً لأستاذئ .

والقاضي الإمام فخر الدين الأرسابندي كانَ رئيسَ الأئمة في مرو وكان السلطانُ يحترمه غاية الاحترام وكان يقول : إنما وُجدت بهذا المنصب بخدمة الأستاذ فإني كنتُ أخدُمُ الأستاذَ القاضي الإمامَ أبا زيد الدبوسي وكنت أخدُمه وأطبخ طعامه [ثلاثين سنة] ولا آكل منه شيئاً .

وكان الشيخ الإمام الأجل شمس الأئمة الحلواني رحمة الله عليه قد خرجَ من بخارى وسكَنَ في بعضِ القرى أياماً لحادثةٍ وقعت له وقد زارَهُ تلاميذُهُ غير الشيخ الإمام شمس الأئمة القاضي بكر بن محمد الزرنجري رحمه الله تعالى ، فقال له حين لقيه : لماذا لم تزرني ؟ قال : كنت مشغولاً بخدمةِ الوالدة . قال : تُرزقُ العمرَ ، لا تُرزقُ رونق الدرس ، وكان كذلك ،

فإنه كان يسكُنُ في أكثرِ أوقاتٍ في القرى ولم ينتظمْ له الدرس. فمن تأذّى منه أستاذُه يُحْرَمْ بركةَ العلمِ ولا ينتفعُ بالعلم إلا قليلاً .

[إن المعلمَ والطبيبَ كلاهما

لا ينصحان إذا هُما لم يُكْرما]

[فاصبر لدائِكَ إن جفوتَ طبيبَهُ

واقنعْ بجهلِكَ إنْ جفوتَ مُعلّما]

وحُكي أنَّ الخليفةَ هارونَ الرشيد بعثَ ابنَهُ إلى الأصمعي ليُعلمَهُ العلمَ والأدبَ فرآه يوماً يتوضأ ويغسلُ رجلَهُ ، وابن الخليفة يصبُّ الماءَ على رجلِهِ ، فعاتبَ الاصمعيَّ [في ذلك] بقوله : إنما بعثتُهُ إليكَ لتعلّمَهُ وتؤدّبَهُ فلماذا لم تأمُرْهُ بأن يَصُبَّ الماءَ بإحدى يديه ، ويغسلَ بالأخرى رجلَك؟

ومن تعظيمِ العلمِ : تعظيمُ الكتاب ، فينبغي لطالب العلم أن لا يأخذ الكتابَ إلا بطهارة .

وحُكي عن الشيخِ شمسِ الأئمة الحلواني رحمه الله تعالى أنه قال : إنما نلت هذا العلمَ بالتعظيم ، فإني ما اخذتُ الكاغد إلا بطهارة .

والشيخ الإمامُ شمسُ الإئمة السرخسي كان مبطوناً في ليلة ، وكان يكرر ، وتَوَضّأ في تلك الليلةِ سبعَ عَشَرْةَ مرة لأنهُ كانَ لا يُكَرّرُ إلا بالطهارة ، وهذا لأن العلمَ نورٌ والوضوءُ نورٌ فيزدادُ نورُ العلم به .

ومن التعظيمِ الواجب للعالم أن لا يَمُدَّ الرّجْلَ إلى الكتابِ ويَضَعَ كتابَ التفسير فوق سائر الكتب [تعظيماً] ولا يَضَعَ شيئاً آخر على الكتاب .

وكان أستاذُنا الشيخُ برهان الدين رحمه الله تعالى يحكي عن شيخٍ من المشايخ : أنَّ فقيهاً كانَ وَضَعَ المِحْبَرَة على الكتاب ، فقال له [بالفارسية] : بَرْنَيا يي .

وكان أستاذنا القاضي الإمامُ الأجلُّ فخر الدين المعروفُ بقاضي خان رحمه الله تعالى يقول : إنْ لم يُرِدْ بذلك الاستخفافَ فلا بأسَ بذلك والأولى أنْ يَحْتَرِزْ عنه .

والتعظيم : أن يُجوّدَ كتابةَ الكتاب ولا يُقَرمِطَ ويتركَ الحاشيةَ إلا عندَ الضرورة .

ورأى أبو حنيفة رحمه اللهُ تعالى كاتباً يُقَرْمِطُ في الكتابة فقال : (لا تُقَرْمِطْ خَطّكَ ، إن عِشْتَ تَنْدَم وإن مِتَّ تُشْتَمْ) يعني إذا شِخْتَ وضَعُفَ نورُ بَصَرِك نَدِمْتَ على ذلك .

وحُكي عن الشيخ الإمام مجد الدين الصرخكي ، حكيَ أنه قال : ما قَرْمَطْنا نَدِمْنا ، وما انتَخَبْنَا ندمنا ، وما نُقابل ندمنا) .

وينبغي أن يكون تقطيعُ الكتابِ مُرَبّعاً ، فإنه تقطيعُ أبي حنيفةَ رحمه الله تعالى ، وهو أيسرُ على الرفعِ والوضعِ والمطالعة .

وينبغي أن يكونَ في الكتابِ شيئٌ من الحمرة ، فإنه من صنيع الفلاسفةِ لا صنيع السلف ، ومن مشايخنا كرهوا استعمال المركّب الأحمر .

ومن تعظيم العلم : تعظيمُ الشركاء [في طلب العلم والدرس] ومن يتعلم منه . والتملقُ مذمومٌ إلا في طلب العلم .

فإنه ينبغي أن يتملقَ لأستاذِهِ وشركائِهِ ليستفيدَ منهم ، وينبغي لطالب العلم ان يستمعَ العلم والحكمةَ بالتعظيمِ والحُرمةِ ، وان سَمِعَ مسئلةً واحدة أو حكمةً واحدة ألف مرة .

قيل : من لم يكن تعظيمُهُ بعد ألف مرةٍ كتعظيمه في أول مرة فليسَ بأهلِ العلم .

وينبغي لطالب العلم أن لا يختارَ نوعَ العلمِ بنفسه ، بل يفوّضُ أمرَهُ إلى الأستاذ ، فإن الأستاذ قد حَصَلَ له التجاربُ في ذلك ، فكانَ أعرَفَ بما ينبغي لكلِ أحدٍ وما يليق بطبيعته.

وكان الشيخُ الإمام الأجلّ الأستاذُ برهان الحق والدين رحمه الله تعالى يقول : كانَ طلبةُ العلمِ في الزمانِ الأول يفوضونَ أمرَهُمْ في التعليم إلى أستاذهِم ، وكانوا يصلون إلى مقصودِهم ومُرادِهم ، والآن يختارون بأنفسِهم ، فلا يَحْصُلُ مقصودُهم من العلم والفقه .

وكان يُحكى أن محمد بن إسماعيل البخاري رحمه الله تعالى كان بدأ بكتابة الصلاةِ على محمد بن الحسن رحمه الله ، فقال له محمد بن الحسن : إذهب وتعلم علمَ الحديث ، لما رأى أن ذلك العلم أليق بطبعه ، فَطَلَبَ علم الحديث فصار فيه مُقدَّماً على جميع أئمة الحديث .

– وينبغي لطالب العلم أن لا يجلسَ قريباً من الأستاذ عند السبق بغير ضرورة ، بل ينبغي أن يكون بينه وبين الأستاذ قدرَ القوس فإنه أقربُ إلى التعظيم .

– وينبغي لطالب العلم أن يحترز عن الأخلاق الذميمة ، فإنها كلابٌ معنوية ، وقد قال رسول الله – صل الله عليه وسلم – : (لا تدخل الملائكة بيتاً فيه كلب أو صورة) . وإنما يتعلم الإنسانُ بواسطة ملك .

والأخلاق الذميمة تُعرف في (كتاب الأخلاق) وكتابُنا هذا لا يحقلُ بيانَها .

[وليحترز] خصوصاً عن التكبر ومع التكبر لا يحصل العلم، قيل :

العلم حرب [للفتى] المتعالي   كالسيل حرب للمكان العالي

فصـل

في الجدّ والمواظبة و الهمـّة

ثم لابد من الجِدّ والمواظبة والملازمة لطالب العلم ، وإليه الإشارة في القرآن بقوله: (يا يحيى خُذ الكتابَ بقوة) وقوله تعالى : (والذينَ جاهَدُوا فِينَا لَنهدِيَنّهم سُبُلَنا) .

قيل :

بجدٍّ لا بجدٍّ كل مُجد   فهل جدٌّ بلا جِدّ بمجدي

فكم من عبدٍ يقومُ مقامَ حر   وكم حر يقومُ مقامَ عبد

وقيل : من طلب شيئاً وجَدَّ وجد ، ومن قرع الباب ولجّ ولج.

وقيل : بقدر ما تتعنّى تنال ما تتمنّى .

وقيل : يحتاج في التعليم والتفقه إلى جد ثلاثة : المتعلم ، الأستاذ ، والأب ، إن كان في الأحياء .

أنشدني الشيخ الإمام الأجل الأستاذ سديد الدين الشيرازي للشافعي رحمهما الله :

الجِدُّ يُدني كلَّ أمرٍ شاسع

والجِدُّ يفتَحُ كلَّ باب مُغْلَقِ

وأحقُّ خلق الله تعالى بالهم امرؤٌ

ذو هِمّةٍ يُبلي بعيشٍ ضيّقِ

ومن الدليل على القضاء وحكمِه

بؤس اللبيب وطيب عيش الأحمق

لكن من رُزقَ الحِجَا حُرِمَ الغنى

ضدّان يفترقان أيَّ تفرقِ

وأنشِدْتُ لغيره :

تمنّيتَ أن تمسي فقيهاً مناظراً

بغير عَنَاءٍ والجنونُ فنونُ

وليس اكتسابُ المالِ دون مشقةٍ

تحمَّلُها فالعِلمُ كيفَ يكونُ؟

قال أبو طيب المتنبي :

لم آر في عيوب الناس عيباً كنقصِ القادرين على الاتمامِ

ولابد لطالب العلم من سهر الليالي كما

قال الشاعر :

بقدرِ الكدِّ تُكتسبُ المعالي

ومنْ طَلَبَ العُلى سَهِرَ الليالي

تروِمُ العِزَّ ثم تنامُ ليلاً

يُغُوصُ في البحر من طَلَبَ اللآلي

عُلُوُّ الكعب بالهممِ العوالي

وعن المرءِ في سَهَرِ الليالي

تركتُ النومَ ربي في الليالي

لأجلِ رضاكَ يا مولَى الموالي

ومن رام العلى من غير كد

أضاع العمر في طلب المحال

فوفَّقْني إلى تحصيل عليمٍ

وبلّغْني إلى أقْصَى المعالي

قيل : اتخذ الليلَ جملاً تدرك به أملا .

قال المصنف وقد اتفق لي نظم في هذا المعنى شعرٌ :

من شاء أن يحتوي آمالُه جُملاً

فليتخذْ ليلَه في دَرْكها جَمَلا

إقلل طعامَك كي تحظى به سهراً

إن شئت يا صاحبي أن تبلغ الكملا

وقيل : من أسهرَ نفسه بالليل ، فقد فَرَّحَ قلبَه بالنهار .

- ولابد لطالب العلم من المواظبة على الدرسِ والتكرار في أول الليل وآخره ، فإن ما بين العشائين ، ووقت السحر ، وقت مبارك .

قيل في هذا المعنى :

يا طالبَ العلم باشِرِ الوَرَعا

وجانب النومَ واترك الشبَعا

وداوم على الدرسِ لا تفارِقُهُ

فإن العلمَ بالدرس قامَ وارتفعا

فيغتنم أيام الحداثة وعنفوان الشباب ،

كما قيل :

بقدر الكد تُعطى ما تَرُومُ   فمن رَامَ المنى ليلاً يَقوُمُ

وأيامَ الحداثـة فاغْتَنِمْهـا   ألاَ إنَّ الحداثَـةَ لا تـدوُمُ

ولا يُجْهِدْ نفسَه جَهْداً يُضْعِفُ النفس حتى ينقطعَ عن العمل ، بل يستعملُ الرفق في ذلك ، والرفقُ أصلٌ عظيم في الأشياء .

قال رسول الله – صل الله عليه وسلم –:(ألا إنَّ هذا الدينَ متينٌ فأوغِل فيه برفق ، ولا تُبَغِّض نفسِك في عبادةِ الله تعالى فإن المنْبَتَّ لا أرضاً قَطَعَ ولا ظَهراً أبْقى) .

وقال عليه السلام : (نفسُكَ مَطِيَّتُكَ فارفُق بها).

فلا بدَّ لطالب العلم من الهِّمةِ العالية في العمل ، فإن المرءَ يطيرُ بهمتِهِ كالطير بجناحيه .

وقال ابو الطيب رحمه الله :

على قَدْرِ أهل العَزْم تأتى العزائم

وتأتي على قدرِ الكرم المكارم

وتعظمُ في عين الصغير صغارُها

وتصغُرُ في عين العظيمِ العَظائِمُ

والركنُ في تحصيل الأشياء الجِدُّ والهمة العالية ، فمن كانت هِمّتُهُ حِفظَ جميعِ كتب محمد بن الحسن ، واقترنَ بذلك الجِدَّ والمواظبة ، فالظاهر أنه يحفَظُ أكثرُها أو نصفَها ، فأما إذا كانت له همة عالية ولم يكن له جِدٌّ، أو كان له جِدٌّ ولم تكن له همةٌ عاليةٌ لا يحصُل له العلم إلا قليلاً .

وذكر الشيخ الإمام الأجل الأستاذ رضيُّ الدين النيسابوري في كتاب (مكارم الأخلاق) : أن ذا القرنين لما أراد أن يسافر ليستوليَ على المشرق و المغرب ، شاوَرَ الحكماء وقال : كيف أسافرُ بهذا القدرِ من الملك ، فإن الدنيا قليلةٌ فانيةٌ، ومُلْكُ الدنيا أمرٌ حقير ، فليس هذا من عُلُوِّ الهمة ، فقال الحكماء : سافِر ليحصل لَك مُلكُ الدنيا والآخرة ، فقال: هذا أحسن .

قال رسول الله – صل الله عليه وسلم –: (إن الله يحبُّ معاليَ الأمورِ ويكرهُ سَفْسَافها).

وقيل :

فــلا تعجــلْ بأمــرِكَ واستَدِمْــهُ

فما صَلّى عصـاك كمستديـم

قيل : قال ابو حنيفة رحمه الله لأبي يوسف : كنتَ بليداً أخرجَتْك المواظبة ، وإياك والكسل فإنه شؤم وآفة عظيمة .

قال الشيخ الإمام أبو نصر الصفار الأنصاري :

يانفسِ يانفسِ لا تُرْخي عن العمل

في البِرِّ والعدلِ والإحسانِ في مَهَلِ

فَكُلُّ ذي عَمَلٍ في الخير مُغتَبِطٌ

وفـي بلاءٍ وشؤمٍ كُلُّ ذي كَسَـلِ

قال المصنف : وقد اتفق لي في هذا المعنى شعر :

دعي نفسي التكاسُلَ والتّواني

وإلا فاثبُتي في ذَا الهوانِ

فلم أرَ للكَسَالي الحظَّ [يُعطي]

سوى نَدَم و حرمانِ الأماني

وقيل :

كم من حياءٍ وكم عَجْزٍ وكم نَدَمٍ

جَمٍّ تَوَلّدَ للإنسانِ مِنْ كَسَلِ

[إياك عن كَسَلٍ في البحثِ عن شُبُهٍ

فما علمتَ ، وما قَدْ شَذْ عَنْكَ سَلِ]

وقد قيل :

الكَسَلُ من قلةِ التأمّلِ في مناقبِ العلمِ وفضائله ، فينبغي أن يُتْعِبَ نفسه علىَ التحصيل والجد والمواظبة بالتأمل في

فضائل العلم ، فإن العلم يبقى [ببقاء المعلومات] والمال يفنى،

كما قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه :

رضينا قسمةَ الجبار فينا

لنا علمٌ وللاعداء مالُ

فإن المالَ يفنى عن قريب

وإن العلمَ يبقى لا يزالُ

والعلمُ النافع يحصل به حسنُ الذكر ويبقى ذلك بعد وفاتِهِ فإنه حياةٌ أبدية . وأنشدنا الشيخُ الإمامُ الأجلُ ظهير الدين مفتي الأئمة الحسن بن علي المعروف بالمرغيناني :

الجاهلون موتى قبلَ موتِهِمُ والعالمونَ وإن ماتوا فأحياء

وأنشدني الشيخ الإمام الأجلُ برهان الدين رحمه الله :

وفي الجهلِ قبل الموت موتٌ لأهله

فأجسامُهم قبل القبور قبور

وأن امرؤ لم يحي بالعلم ميت

فليسَ له حين النشور نشور

[وقال غيره] :

أخو العلمِ حيٌ خالدٌ بعد موته

واوصالُه تحت التراب رميم

وذو الجهل ميت وهو يمشي على الثر

ى يظهر من الأحياء وهو عديم

وقال آخر :

حياة القلب علم فاغتنمه ومو ت القلب جهلٌ فاجتنبهُ

وأنشدني استاذنا شيخ الإسلام برهان الدين رحمة الله عليه شعراً :

ذا العلم أعلى رتبةً في المراتِبِ

ومِنْ دُونه عِزُّ العلى في المَوَاكِبِ

فذو العلم يبقى عزّه مُتَضاعِفاً

وذو الجهل بعد الموتِ في الترائبِ

فهيهاتُ لا يرجوا مَداهُ من أرتقى

رُقي وليّ الملكَ والِي الكتائِبِ

سأمْلي عليكم بعضَ ما فيه فاسمَعُوا

فبي حَصرٌ عن ذِكر كل المنِاقِبِ

هو النورُ كُلُّ النور يَهْدي عن العَمَى

وذو الجهل مَرَّ الدهرِ بين الغياهب

هو الذِّروَةُ الشّمّاءُ تحمي من التجا

إليها ويمشي آمناً في النوائِبِ

به يَنْتَجي والناسُ في غفلاتهم

به يرتَجي والروحُ بين الترائِبِ

به يشفَعُ الإنسانُ من رَاحَ عاصيا

إلى دَرَكِ النيران شرِّ العَواقبِ

فمن رامَهُ رامَ المآرب كُلّها

ومن حازه قدْ حازَ كلَّ المطالبِ

هو المِنصَب العالي يا صاحب الحج

إذا نلْتَهُ هَوَّن بفوتِ المِناصِب

فإن فاتَكَ الدُّنيا وطيبُ نعيمها

[فغمِّضْ] فإن العلمَ خيْر المواهب

قيل في هذا المعنى :

إذا ما اعتز ذوُ علمٍ بعلمٍ

فعلمُ الفقهِ أولى باعتزازِ

فكم طيب يفوح ولا كمسك

وكم طَيْرٍ يطيرُ ولا كبازي

وأنشدت أيضاً لبعضهم :

الفِقه أنفسُ كل شيئٍ أنت ذاخرُهُ

من يَدْرُسِ العلم لم تَدْرُسْ مفاخره

فاكسب لنفسك ما أصبحت تجْهله

فـأوَّل العلـم إقبـالٌ وآخـره

وكفى بلذةِ العلمِ والفقهِ والفهمِ داعياً وباعثاً للعاقل على تحصيل العلم .

وقد يتولدُ الكسلُ من كثرةِ البلغَمِ والرُطوبات ، وطريقُ تقليلِهِ ، تقليلُ الطعام .

قيل : اتفق سبعون طبيباً على أن النسيان من كثرة البلغم ، وكثرة البلغم من كثرة شرب الماء ، وكثرة شرب الماء من كثرة

الأكل ، والخبز اليابس يقطعُ البلغمَ ، وكذلك أكلُ الزبيب على الريق ، ولا يكثر منه ، حتى لا يحتاج إلى شرب الماء فيزيد البلغم .

والسواك يقللُ البلغم ، ويزيد الحفظ و الفصاحة ، فإنه سُنّةٌ سَنِيَّةٌ تزيد في ثواب الصلاة ، وقراءة القرآن ، وكذا القيء يقلل البلغم والرطوبات ، وطريقُ تقليل الأكل التأمل في منافع قلةِ الأكل وهي : الصحة و العافية و الإيثار .

وقيل فيه شعراً :

فعــارٌ ثــم عــارٌ ثــم عــارٌ

شقاءُ المرء من أجل الطعام .

وعن النبي عليه السلام أنه قال : (ثلاثةٌ يُبغضُهُم الله من غير جُرم : الأكولُ والبخيلُ والمتكبر) .

وتأمَّلْ في مضار كثيرة الأكل وهي : الأمراض وكلالة الطبع ، وقيل :(البِطنة تُذهبُ الفِطنة) .

حكي عن جالينوس أنه قال : الرُّمانُ نفع كلُّه ، والسمك ضرر كله ، وقليل السمك خير من كثير الرمان .

وفيه أيضاً : إتلاف المال ، والأكلُ فوق الشبع ضررٌ محض ويستحق به العقاب في دار الآخرة ، والأكولُ بغيضٌ في القلوب.

وطريق تقليل الأكل : أن يأكُلَ الأطعمة الدسمة ويقدمَ في الأكل الألطف والأشهى ، ولا يأكلَ مع الجائع إلا إذا كان له غرض صحيح ، بإن يتقوى به على الصيام والصلاة والأعمال الشاقة فله ذلك.

فصـل

في بَداية السّبق و قدره و ترتيبه

كان أستاذنا شيخ الإسلام برهان الدين رحمه الله يوقف بداية السَّبْق على يوم الأربعاء ، وكان يروي في ذلك حديثاً ويستدل به ويقول : (قال رسول الله (صل الله عليه وسلم) : (ما من شيئ بدئ يوم الأربعاء إلا وقد تم) . وهكذا كان يفعل أبي .

وكان يروي هذا الحديث عن أستاذه الشيخ الإمام الأجل قوام الدين أحمد بن عبدالرشيد رحمه الله .

وسمعتُ ممن أثق به ، أن الشيخ يوسف الهمذاني رحمه الله ، كان يوقف كل عمل من الخير على يوم الأربعاء . وهذا لأن يوم الأربعاء يوم خلق فيه النور ، وهو يوم نحس في حق الكفار فيكون مباركاً للمؤمنين .

وأما قدْرُ السَّبْق في الابتداء : كان أبو حنيفة رحمه الله يحكي عن الشيخ القاضي الإمام عمر بن أبي بكر الزرنجري رحمه الله أنه قال : قال مشايخنا رحمهم الله : ينبغي أن يكون قدر السبقِ للمبتدئ قدر ما يمكن ضبطه بالإعادة مرتين بالرفق ويزيد كل يوم كلمة حتى أنه وإن طال وكثر يمكن ضبطه بالإعادة مرتين ، ويزيد بالرفق و التدريج ، وأما إذا طال السبق في الإبتداء واحتاجَ إلى الإعادة عشر مرات فهو في الانتهاء أيضاً يكون كذلك ، لأنه يعتادُ ذلك ، ولا يترك

تلك الإعادة إلا بجد كثير . وقد قيل : السبق حَرفٌ ، والتكرار أَلْفٌ .

وينبغي أن يبتدئ بشئ يكون أقرب الى فهمه ، وكان الشيخ الإمام الأستاذ شرفُ الدين العقيلي رحمه الله يقول : الصوابُ عندي في هذا ما فعله مشايخنا رحمهم الله ، فإنهم كانوا يختارون للمبتدئ صِغَارات المبسوط لأنه أقربُ إلى الفَهْم و الضبط ، وأبعدُ ، وأكثرُ وقوعاً بين الناس .

وينبغي أن يعلقَ بعد الضبطِ والإعادة كثيراً ، فإنه نافعٌ جداً.

ولا يكتب المتعلمُ شيئاً لا يفهمه ، فإنه يورثُ كلالةً الطبع و يُذهبُ الفطنة ويُضيّعُ أوقاته .

وينبغي ان يجتهد في الفهم عن الأستاذ بالتأمُّلِ وبالتفكير وكثرةِ التكرارِ ، فإنه إذا قَلَّ السَّبقُ وكَثُرَ التكرار والتأمل يُدرك ويَفْهَم .

قيل : حفظ حرفَيْن ، خير من سماع وِقْرين ، وفهم حرفين خير من حفظ سطرين .

وإذا تهاون في الفَهْمِ ولم يجتهد مرةً أو مرتين يعتادُ ذلك فلا يفهمُ الكلامَ اليسير ، فينبغي أن لا يتهاوَنَ في الفهم بل يجتهدَ ويدعو الله ويتورّعَ أليه فإنه يجيبُ من دعاه ، ولا يُخَيّبُ من رجاه .

وأنشدنا الشيخ الأجل قوام الدين حماد بن إبراهيم بن إسماعيل الصفار الأنصاري إملاءً للقاضي الخليل بن أحمد الشجري في ذلك شعراً :

أخدُم العلمَ خِدمةَ المستفيد

وأدِمْ درسَهُ بفعلٍ حميدِ

وإذا ما حفظتَ شيئاً أعِدْهُ

ثـم أكّدْهُ غايـةَ التأكيدِ

كي لا يزولَ ثم عقّله كي تعودَ

إليه وإلى درسِهِ على التأبيدِ

فإذا ما أمِنْتَ منه فَوَاتاً

فانتدِبْ وبعدَهُ لشئ جديد

مع تكرار ما تَقَدَّمَ منه

واقتناء لشأن هذا المزيدِ

ذاكِرِ الناسَ بالعلوم لتحيا

لاتَكُنْ من أولي النُّهى ببعيدِ

إذا كتمتَ العلومَ أنسيتَ حتى

لا تُرَى غيرَ جاهلٍ وبليدِ

ثم ألجمت في القيامة ناراً

وتَلَهَّبْتَ بالعذابِ الشديدِ

ولا بد لطالب العلم من المذاكرة ، والمناظرة ، والمطارحة ، فينبغي أن يكون كل منها بالإنصافِ والتأني والتأمل ، ويتحرز عن الشغب[الغضب] ، فإن المناظرةَ والمذاكرةَ مشاورةٌ ، والمشاورةُ إنما تكونُ لاستخراجِ الصوابِ وذلك إنما يحصُلُ بالتأمُّلِ والتأني والإنصاف ، ولا يحصل بالغضب والشغب .

فإن كانت نيته من المباحثة إلزام الخصم و قَهْرَه ، فلا تحل ، وإنما يُحَلُّ ذلك لإظهارِ الحق .

والتمويهُ والحيلةُ لا يجوز فيها ، إلا إذا كان الخصمُ متعنتاً ، ولا طالباً للحق .

وكان محمد بن يحيى إذا تَوَجَّهَ عليه الاشكالُ ولم يَحْضُرْهُ الجوابُ يقول : ما ألزمتَهُ لازمٌ ، وأنا فيه ناظرٌ ، وفوقَ كلِّ ذي علمٍ عليم .

وفائدة المطارحةِ والمناظرةِ أقوى من فائدةِ مجرد التكرار لأن فيه تكراراً وزيادة .

وقيل : مطارحةُ ساعةٍ ، خيرٌ من تكرار شهر .

لكن إذا كان [مع] منصفٍ سلمِ الطبيعة .

وإياكَ والمذاكرة مع متعنتٍ غيرِ مستقيم الطبع ، فإنه الطبيعة متسرية ، والأخلاق متعدية ، والمجاورة مُؤَثِّرة .

وفي الشعر الذي ذكره الخليل بن أحمد فوائد كثيرة ،

قيل :

العلمُ من شرطه لمن خدمه

أن يجعلَ الناسَ كلهم خدمه

وينبغي لطالب العلم أن يكونَ متأملاً في جميع الأوقاتِ في دقائق العلوم ويعتادَ ذلك ، فإنما يُدرِكُ الدقائقَ بالتأمل ، فلهذا قيل : (تأمل تُدرِك) .

ولابد من التأمّل قبل الكلام حتى يكونَ صواباً ، فإن الكلامَ كالسهم ، فلا بد من تقويمه قبل الكلام حتى يكونَ مصيباً .

وقال في أصول الفقه : هذا أصلٌ كبير وهو أن يكون كلامُ الفقهِ المناظرِ بالتأمل .

قيل : رأسُ العقل أن يكون الكلامُ بالتَّثَبُّتِ والتأمل .

قال قائلٌ شعراً :

أوصيكَ في نظمِ الكلام بخمسةٍ

إن كُنْتَ للموصي الشفيقِ مُطيعاً

لا تُغْفِلَنَّ سَبَبَ الكلامِ ووَقْتَهُ

والكيفَ والكمَّ والمكانَ جميعاً

ويكونُ مستفيداً في جميع الأوقات و الأحوال من جميعِ الأشخاص ، قال رسول الله (صل الله عليه وسلم) : (الحكمةُ ضالةُ المؤمن أينما وجدَها أخذها) .

وقيل خذ ما صفا ، ودع ما يكدر . وسمعت الشيخ الإمام الأجلّ الأستاذ فخر الدين الكاشاني يقول : كانت جارية أبي يوسف أمنة عند محمد [بن حسن] فقال لها : هل تحفظين أنت في هذا الوقت عن أبي يوسف في الفقه شيئاً ؟ . قالت لا ، إلا انه كان يكرر ويقول : سهم الدور ساقط ، فحفظ ذلك منها ، وكانت تلك المسألة مشكلة على محمد فارتفع أشكاله بهذه الكلمة . فعلم أن الاستفادة ممكنة من كل أحد.

ولهذا قال أبو يوسف حين قيل : بم أدركتَ العلم؟ قال : ما استنكفتُ من الاستفادة من كل أحد وما بخلت من الإفادة .

وقيل لابن عباس رحمه الله : بم أدركت العلم ؟

قال بلسان سؤول ، وقلب عقول .

وإنما سمي طالب العلم :(ما تقول) ، لكثرة ما كانوا يقولون في الزمان الأول . (ما تقول في هذه المسألة ؟) .

وإنما تفقه أبو حنيفة رحمه الله بكثرة المطارحة والمذاكرة في دكانه حين كان بزازاً . فبهذا يُعلم أن تحصيلُ العلم والفقه يجتمعُ مع الكسب .

وكان أبو حفص الكبير يكتسب و يكرر العلوم ، فإن كان لابد لطالب العلم من الكسب لنفقة العيال وغيره فليكتسب وليكرر وليذاكر ولا يكسل .

وليس لصحيح العقل والبدن عذرٌ في ترك التعلم والتفقه فإنه لا يكون أفقر من أبي يوسف ، ولم يمنعه ذلك من التفقه . فمن كان له مال كثير فنعم المال الصالح للرجل الصالح ، المنصرف في طريق العلم .

قيل لعالم : بم أدركت العلم ؟ قال : بأبٍ غني . لأنه كان ينتفع به أهل العلم والفضل ، فإنه سبب زيادة العلم لأنه شكر على نعمة العقل والعلم ، وإنه سبب الزيادة .

قيل : قال ابو حنيفة رحمه الله : إنما أدركت العلم بالحمد والشكر ، فكلما فهمتُ ووُفّقتُ على فقه وحكمة قلت : الحمد لله ، فازداد علمي .

وهكذا ينبغي لطالب العلم أن يشتغلَ بالشكر باللسان والجنان والأركان والحال ويرى الفهم والعلم والتوفيق من الله تعالى ويطلبَ الهداية من الله تعالى بالدعاء له والتضرع إليه ، فإن الله تعالى هادٍ من استهداه .

فأهلُ الحق – وهم أهل السنة والجماعة – طلبوا الحقَّ من الله تعالى ، الحقَّ المبين الهادي العاصم ، فهداهم الله وعصمهم عن الضلالة .

وأهلُ الضلالة أعجبوا برأيهم وعقلهم وطلبوا الحق من المخلوق العاجز وهو العقل ، لأنَّ العقلَ لا يُدْرِكُ جميعَ الأشياءِ كالبصر ، فإنه لا يُبْصِرُ جميعَ الأشياء فَحُجبوا وعَجَزوا عن معرفته ، وضلّلوا و أضلوا .

قال رسول الله (صل الله عليه وسلم) :(الغافل من عمل بغفلته والعاقلُ من عَمِلَ بعقله) . فالعمل بالعقل أوّلاً : أن يعرف عجز نفسِه ، قال رسول الله (صل الله عليه وسلم) : (مَنْ عَرَف نفسَه فقد عرف ربَّه)، فإذا عرف عجز نفسه عرف قدرةَ الله عز وجل ، ولا يعتمد على نفسه وعقله بل يتوكل على الله ، ويطلب الحق منه . ومن يتوكل على الله فهو حسبه ويهديه إلى صراط مستقيم .

ومن كان له مال كثير فلا يبخل ، وينبغي أن يتعوذ بالله من البخل.

قال النبي عليه السلام :(أيُّ دواء أدوأ من البخل).

وكان أبو الشخِ الإمام الأجل شمس الأئمة الحلواني ، رحمه الله فقيراً يبيع الحلواء ، وكان يعطي الفقهاء من الحلواء ويقول : أدعوا لابني ، فببركة جوده واعتقاده و شفقته وتضرعه إلى الله تعالى نال ابنه ما نال .

ويشتري بالمال الكتب ويستكتبَ فيكونَ عوناً على التعلم والتفقه.

وقد كان لمحمد بن الحسن مال كثير حتى كان له ثلاثمائة من الوكلاء على ماله وأنفقه كلّه في العلم والفقه ، ولم يبق له ثوبٌ نفيس فرآه أبو يوسف في ثوب خَلق فأرسل إليه ثياباً نفيسة فلم يقبلها فقال : عُجِّل لكم ، وأجِّلَ لنا ، ولعله إنما لم يقبله وإن كان قبول الهدية سنة ، لما رأى من ذلك مذلةً لنفسه .

قال رسول الله (صل الله عليه وسلم) : (لَيْسَ للمؤمن أن يُذِلَّ نفسه).

وحُكي أنَّ الشيخَ فخر الإسلام الارسابندي رحمه الله جمع قشورَ البطيخ الملقاة في مكان خالٍ فأكلها فرأته جارية فأخْبَرَتْ بذلك مولاها فاتخذَ له دعوةً فدعاه إليها فلم يقبل لهذا.

وهكذا ينبغي لطالب العلم أنْ يكونَ ذا همةٍ عالية لا يطمعُ في أموال الناس.

قال النبي(صل الله عليه وسلم):(إيّاكَ والطمعَ فإنه فقرٌحاضر). ولا يبخل بما عنده من المال بل ينفق على نفسه وعلى غيره.

قال النبي عليه الصلاة والسلام :(الناسُ كلُّهمْ في الفقر مخافةَ الفقر). وكان في الزمان الأول يتعلمون الحِرفة ثم يتعلمون العلم ، حتى لا يطمعوا في أموال الناس.

وفي الحكمة : من استغنى بمال الناس افتقر.

والعالم إذا كان طماعاً لا يُبقي حرمةَ العلم ، ولا يقولُ بالحق ، فلهذا يتعوذُ صاحبُ الشرع (صل الله عليه وسلم) منه ويقول (أعوذُ بالله من طَمَعٍ يُدني إلى طبع).

وينبغي للمؤمن أن لا يرجو إلا من الله تعالى ، ولا يخافَ إلّا منه ، ويَظْهَرُ ذلك بمجاوزة حد الشرع وعدمِها ؛ فمن عصى اللهَ خوفاً من المخلوق فقد خافَ غيرَ الله ، وإذا لم يعص اللهَ تعالى لخوف المخلوق وراقبَ حدودَ الشرع فلم يخف غير الله بل خاف الله تعالى ، وكذا في جانب الرجاء.

وينبغي لطالب العلم أن يَعُدَّ ويُقَدِّرَ لنفسه تقديراً في التكرار فإنه لا يستقر قلبه حتى يبلغ ذلك المبلغ ، وينبغي أن يكرر سَبْقَ الأمس خمسَ مرات ، وسبق اليوم الذي قبل الأمس أربعَ مرات ، والسبقَ الذي قبله ثلاثَ ، والذي قبله اثنين ، والذي قبله واحد ، فهذا أدعى إلى الحفظ والتكرار .

وينبغي أن لا يعتاد المخافتة في التكرار لأن الدرسَ والتكرار ينبغي أن يكون بقوة ونشاط ، ولا يجهر جهراً يجهد نفسه كيلا ينقطع عن التكرار ، فخير الأمور أوسطها .

حُكي أن أبا يوسف رحمه الله كان يُذاكرُ الفقهَ مع الفقهاء بقوةٍ ونشاطٍ ، وكان صهرُهُ عندَهُ يتعجبُ في أمره ويقول : أنا أعلمُ أنّه جائعٌ منذ خمسةِ أيام ، مع ذلك يناظرُ بقوة ونشاط.

وينبغي ان لا يكون لطالب العلم فترةٌ فاِنها آفة ، وكان أستاذنا شيخُ ألاِسلام برهان الدين رحمه الله يقول : اِنما غَلَبتُ شركائي بأني لا تقع لي فترة في التحصيل .

وكان يَحْكي عن الشيخ الاسبيجابي أنه وقع في زمان تحصيله وتعلمه فترةُ اثنتي عشرة سنة بانقلاب المِلْك ، فخرج مع شريكه في المناظرة [إلى حيث يمكنهما الاستمرار في طلب العلم وظلا يدرسانه معاً] ولم يتركا الجلوس للمناظرة اثنتي

عشرة سنة . فصار شريكه شيخ الإسلام للشافعيين وكان هو شافعياً .

وكان أستاذنا الشيخ القاضي الإمام فخر الإسلام قاضي خان يقول : ينبغي للمتفقه أن يحفظ [كتاباً] واحداً من [كتب] الفقه دائماً فيتيسر له بعد ذلك حفظ ما سمع من الفقه .

فصل

في التوكّل

ثم لا بد لطالب العلم من التوكل في طلب العلم ولا يهتمُّ لأمر الرزق ولا يشغل قلبه بذلك .

روى أبو حنيفة رحمه الله عن عبدالله بن الحارث الزبيدي صاحب رسول الله (صل الله عليه وسلم) : (من تفقَّهَ في دين الله كفى همَّه اللهُ تعالى ورزقه من حيث لا يحتسب) .

فإن من اشتغل قلبُه بأمر الرزق من القوت والكِسوة قلَّ ما يتفرغُ لتحصيل مكارم الأخلاق ومعالي الأمور.

قيل:

دَعِ المكارمَ لا ترحَلْ لِبُغْيَتِها

واقعد فإنكَ أنتَ الطاعمُ الكاسي

قال رجل [لابن] منصور الحلاج : أوصني ، فقال [ابن] المنصور : هي نفسك ، إن لم تشغلها شغلتك .

فينبغي لكل أحد أن يشغل نفسه بأعمال الخير حتى لا يشغل نفسه بهواها ، ولا يهتم العاقل لأمر الدنيا لأن الهم والحزن لا يَرُدُّ المصيبة ، ولا ينفع بل يضر بالقلب والبدن و العقل ، ويُخِلُّ بأعمال الخير ، ويهتم لأمر الآخرة لأنه ينفع . وأما قوله عليه الصلاة والسلام :(إنّ من الذنوب ذنوباً لا يُكَفِّرُها إلا هَمُّ المعيشة) فالمراد منه قَدْرُ هَمّ لا يُخِلُّ بأعمال

الخير ولا يشغَلُ القلبَ شُغلاً يُخلُّ بإحضارِ القلب في الصلاة ، فإن ذلك القدرَ من الهَمِّ والقصد من أعمال الآخرة .

ولا بد لطالب العلم من تقليل العلائق الدنيوية بقدرالوسع فلهذا اختاروا الغربة .

ولابدَّ من تحمّل النّصَب والمشقة في سفر التعلم ، كما قال موسى صلوات الله على نبينا وعليه في سفرِ التعلم ولم يُنقل عنه ذلك في غيره من الأسفار (لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا) .

لِيُعْلَم أنَّ سفرَ العلمِ لا يَخْلُو عن التعب ، لأنَّ طلبَ العلم أمرٌ عظيم وهو أفضلُ من الغزاة عند أكثر العلماء ، والأجرُ على قدر التعب والنّصَب ، فمن صبر على ذلك التعب وجد لذة العلم تفوق [لذات الدنيا].

ولهذا كان محمد ابن الحسن إذا سَهِرَ الليالي وانحلت له المشْكلات يقول : أين أبناءُ الملوكِ من هذه اللّذات ؟ .

وينبغي [لطالب العلمِ] ألا يشتغلَ بشئ [آخرَ غيرَ العلم] ولا يُعْرِضَ عن الفقه .

قال محمد بن الحسن رحمه الله : صناعتُنا هذه من المهد إلى اللحد فمن أراد أن يتركَ عِلْمَنا هذا ساعةً فَلْيَتْرُكْهُ الساعة .

ودخل فقيهٌ ، وهو إبراهيم بن الجراح ، على أبي يوسف يعودُهُ في مرضِ موته وهو يجودُ بنفسه ، فقال أبو يوسف : رَمْيُ الجمار راكباً أفضَلُ أم راجلاً ؟ فلم يعرف الجواب ، فأجاب بنفسه .

وهكذا ينبغي للفقيه أن يشتغلَ به في جميع أوقاته [فحينئذ] يجد لذةً عظيمة في ذلك .

وقيل : رؤي محمد [ابن الحسن] في المنام بعد وفاته فقيل له : كيف كنتَ في حالِ النزع؟ فقال : كنتُ متأملاً في مسألة من مسائل المكاتَبْ ، فلم أشعر بخروج روحي .

وقيل إنه قال في آخر عمره : شغلتني مسائل المكاتب عن الاستعداد لهذا اليوم ، وإنما قال ذلك تواضعاً .

فصل

في وَقت التحصيل

قيل : وقت التعلم من المهد إلى اللحد .

دخل حسن بن زياد في التفقه وهو ابن ثمانين سنة ، ولم يبت على الفراش أربعين سنة فأفتى بعد ذلك أربعين سنة .

وأفضل الأوقات شرخ الشباب ، ووقتُ السَحَر ، وما بين العِشائين ، وينبغي أن يستغرقَ جميعَ أوقاتِهِ ، فإذا ملَّ من علمٍ يشتغلُ بعلمٍ آخر .

وكان ابن عباس رضي الله عنه إذا مَلَّ من الكلام يقول : هاتوا ديوان الشعراء .

وكان محمدُ بن الحسن لاينام الليل ، وكان يضعُ عنده الدفاتر ، وكان إذا مَلَّ من نوعٍ ينظُرُ في نوعٍ آخر ، (وكان يضعُ عنده الماءَ ، ويزيلُ نومَهُ بالماءِ ، وكان يقول : اِن النومَ من الحرارة

فصل

في الشفقة و النصيحَة

وينبغي أن يكونَ صاحب العلمِ مُشفقاً ناصحاً غيرَ حاسد ، فالحاسدُ يَضُرُّ ولا ينفع . وكان أستاذُنا شيخ الإسلام برهانُ الدين رحمه الله يقول : قالوا إن ابن المعَلِّم يكون عالماً لأن المعَلِّمَ يريدُ أنْ يكونَ تلميذه في القرآن عالماً فببركةِ اعتقادهِ وشفقته يكونُ ابنُهُ عالماً .

وكان أبو الحسن يحكي أن الصدرَ الأجلَّ برهانُ الأئمةِ جعَلَ وَقْتَ السَّبْق لابنه الصدرِ الشهيد حُسام الدين [والصدر] السعيد تاج الدين وقتَ الضحوة الكبرى بعد جميع الاسباق ، وكانا يقولان : إن طبيعتَنا تَكَلُّ في ذلك الوقت ، فقال أبوهما رحمه الله : إن الغرباء وأولادَ الكبراء يأتونني من أقطارِ الأرض فلا بُدَّ من أنْ أقدِّم أسباقَهم . فببركةِ شفقتهِ فاقَ ابناهُ أكثرَ فقهاءِ الأمصارِ وأهل الأرض في ذلك العصر.

وينبغي أن لايُنازِعَ أحداً ولا يُخاصِمَه لأنه يضيعُ أوقاتَه .

قيل : المحسِنُ سيُجْزَى بإحسانِهِ والمسئ ستكفيه مساويه .

أنشدني الشيخ الإمام الزاهد العارف ركن الإسلام محمد بن أبي بكر المعروف بإمام خواهر زادة مفتي الفريقين رحمه الله قال : أنشدني سلطان الشريعةِ والطريقةِ يوسف الهمذاني :

لاتجز[إنساناً] على سوءِ فعلِهِ سيكفيه ما فيه وما هُوَ فاعِلُه

قيل : من أرادَ أنْ يُرغِمَ أنفَ عدوّه فليكرر

وأنشدتُ هذا الشعر :

إذا شئتَ أن تَلْقَى عدوَّك راغماً

وتقتلُه غماً وتَحرِقْهُ همّاً

فَرُمْ للعُلى وازْدَدْ من العلم إنّه

مَنِ ازدادَ عِلْماً زادَ حاسِدُه غمّاً

قيل : عليك أن تشتغلَ بمصالحِ نفسك لا بقهرِ عدوّك ،فإذا أقمتَ مصالحَ نفسك تَضَمّنَ ذلك قَهْرَ عدوك . إياك والمعاداة فإنها تَفْضَحك و تُضِيعُ أوقاتك ، وعليك بالتحمّل [لا] سيما من السفهاء .

قال عيسى بن مريم صلوات الله عليه : احتملوا من السفيه واحدةً كَيْ تربحوا عَشْرا .

وأنشِدْتُ لبعضهم شعراً :

بلوْتُ الناسَ قرناً بَعْدَ قرن

ولم أر غير خَتّالٍ وقالي

ولم أر في الخطوب أشدَّ وقعاً

وأصعبَ من مُعاداةِ الرجال

وذُقْتُ مرارةَ الأشياءِ طُراً

وما ذقت أمرَّ من السؤال

وإياكَ أنْ تَظُنَّ بالمؤمن سوءً فإنه منشأ العداوة ولا يَحِلُّ ذلك، لقوله عليه الصلاة والسلام : (ظُنّوا بالمؤمنين خيراً) ، وإنما ينشأ ذلك من خُبْثِ النيةِ وسوءِ السريرة ،

كما قال أبو الطيب :

إذا سَاءَ فِعْلُ المرءِ ساءَتْ ظُنُونُه

وصَدَّقَ ما يعتادُهُ من تَوَهُّمِ

وعادى محبيه بقولِ عُداتِهِ

وأصْبَحَ في ليلٍ من الشّكِّ مظلمِ

وأنشِدْتُ لبعضهم:

تَنَحَّ عن القبيح ولا تُرِدْهُ

ومن أوليتَهُ حُسْناً فَزِدْهُ

ستُكفى من عَدُوِّك كلَّ كيدٍ

إذا كادَ العَدُوُّ فلا تَكِدْهُ

وأنشِدْتُ للشيخ العميدِ أبي الفتح البُسْتيّ :

ذو العَقْلِ لا يَسْلَمُ من جَاهِلٍ

يَسُومُهُ ظلماً وإعناتاً

فليختر السِّلْمَ على حَرْبِهِ

وليلزم الإنصاتَ إن صات

فصل

في الاستفادة واقتباس الأدب

وينبغي أنْ يكون طالب العلم مستفيداً في كل وقتٍ حتى يحصُلَ له الفضلُ والكمالُ في العلم . وطريقُ الاستفادة أنْ يكونَ معه في كل وقتٍ محبرة حتى يكتب ما يسمع من الفوائد العلمية.

قيل : مَنْ حَفِظَ فَرَّ ومن كَتَبَ قَرَّ .

وقيل : العلمُ ما يؤخذ من أفواهِ الرجال ، لأنهم يحفظون أحسنَ ما يسمعون ، ويقولون أحسنَ ما يحفظون .

وسمعتُ عن الشيخ الإمام الأديبِ الأستاذ زينِ الإسلام المعروفِ بالأديب المختار يقول : قال هلال[بن زيد] بن يسار : رأيتُ النبيَ -صل الله عليه وسلم- يقول لأصحابِهِ شيئاً من العلمِ والحكمةِ ، فقلتُ : يا رسول الله أعِدْ ما قلت لهم ، فقال لي : هل مَعَك مِحْبَرَة ؟ فقلت : ما معي محبرة ، فقال النبي عليه السلام :(يا هلال لا تُفارق المحبرة لأن الخيرَ فيها وفي أهلِها إلى يوم القيامة) .

وَوَصّى الصدرُ الشهيدُ حُسامُ الدين إبنَه شمسَ الدين أنْ يحفظَ كُلَّ يومٍ شيئاً من العلم والحكمة فإنه يسير ، وعن قريبٍ يكونُ كثيراً .

واشترى عصام بن يوسف قَلَماً بدينار ليكتبَ ما يسمعه في الحال ، فالعُمْرُ قصير والعلمُ كثير .

فينبغي أن لا يُضيعَ طالبُ العلم الأوقاتِ والساعاتِ ويغتنم الليالي والخلوات .

يُحكى عن يحيى بن معاذ الرازي [أنه قال] الليل طويل فلا تُقَصِّرْهُ بمنامِكَ ، والنهارُ مُضِيءٌ فلا تُكدِّرْهُ بآثامِك .

وينبغي أنْ يغتنمَ الشيوخَ ويستفيدَ منهم ، وليس كُلُّ ما فات يُدْرَك ، كما قال أستاذُنا شيخُ الإسلام في (مشيخته) :

كم من شيخٍ كبير أدركتُهُ وما استَخْبَرْتُهُ .

وأقولُ على هذا الفوت مُنْشِئاً هذا البيت :

لَهْفاً على فوتِ التَلاقي لَهْفاً ما كُلُّ ما فات ويفنى يُلْفَى

قال عليّ رضي الله عنه : إذا كنت في أمرٍ فكن فيه ، وكفى بالإعراض عن علم الله خِزْياً وخَساراً واستعذ بالله منه ليلاً ونهاراً.

ولابد لطالب العلم من تَحَمُّل المشقة والمذلة في طلب العلم ، والتَمَلُّقُ مذمومٌ إلا في طلب العلم فإنه لا بدَّ له من التملقِ للأستاذ والشريك وغيرهم للاستفادة منهم.

قيل : العلمُ عِزٌّ لا ذُلَّ فيه ، لا يُدْرَكُ إلا بذلٍ لا عِزَّ فيه.

وقال القائل :

أرى لَكَ نفساً تشتَهي أن تُعِزَّها

فلستَ تنالُ العزّ حتى تُذِلّ

فصل

في الورع في حَالة التعلّم

روي بعضُهم حديثاً في الباب عن رسول الله (صل الله عليه وسلم) أنه قال : (من لم يتورع في تعلمه ابتلاهُ الله تعالى بأحدِ ثلاثةِ أشياء :إما أن يُمِتُهُ في شبابهِ ، أو يوقِعَهُ في الرَسَاتيق ، أو يَبْتَليَهُ بخدمة السلطان) فكلما كانَ طالبُ العلم أورَعَ كانَ علمُهُ أنفع ، والتعلّمُ له أيسر وفوائِدُهُ أكثر.

ومن الورع [الكامل] أن يتحَرَّزَ عن الشبعِ وكثرةِ النوم وكثرةِ الكلام فيما لا ينفع ، وأن يتحرزَ عن أكلِ طعام السوقِ إنْ أمكن ، لأنَّ طعامَ السوق أقربُ إلى النجاسةِ والخباثةِ ، وأبعدُ عن ذكرِ الله وأقربُ الى الغفلة ، ولأن أبصارَ الفقراء تقعُ عليه ولا يَقْدِرُون على الشراءِ منه ، فيتأذّوْن بذلك فتذهَبُ بركتُه .

وحكي أن الامام الشيخَ الجليلَ محمد بن الفضل كان في حال تَعَلُّمِهِ لا يأكل من طعام السوق ، وكان أبوه يسكُنُ في الرساتيق ويهيىءُ طعامَه ويدخل إليه يوم الجمعة ، فرأى في بيتِ ابنه خبزَ السوق يوماً فلم يكلِّمْهُ ساخِطاً على ابنه فاعتذر ابنهُ ، فقال: ما اشتريتُ انا ولم أرض به ولكن أحضَرَهُ شريكي ، فقال أبوه: لو كنتَ تحتاط وتتورع عن مثله لم يجرؤ شريكُك على ذلك.

وهكذا كانوا يتورعون فلذلك وُفِّقُوا للعلم والنشر حتى بقي اسمُهم إلى يوم القيامة.

ووصى فقيه من زُهّاد الفقهاء طالبَ العلم أن يتحرز عن الغيبةِ وعن مجالسة المكثار ، وقال : من يُكثِر الكلامَ يَسْرِق عمركَ ويضيعُ أوقاتك.

ومن الورع أنْ يَجْتَنِبَ من أهل الفسادِ والمعاصي والتعطيل ، [ويجاور الصلحاء] فإن المجاورة مؤثرة ، وأن يجلس مستقبل القبلة ويكونَ مستناً بسنة النبي عليه الصلاة والسلام ، ويغتنم دعوة أهل الخير ، ويتحرزَ عن دعوة المظلومين .

وحكي أنَّ رجلين خرجا في طلب العلم للغربة وكانا شريكين فرجعا بعد سنين إلى بلدهما وقد فَقِهَ أحدُهما ولم يتفقه الآخر ، فتأمل فقهاءُ البلاد وسألوا عن حالهما وتكرارهما وجلوسهما فأخبروا أنَّ جلوسَ الذي تفقه في حال التكرار كان مستقبلاً القبلة والمِصْرَ الذي [حصّل العلم فيه] والآخر كان مستدبراً القبلة ووجهَه الى غير المصر . فأتفق العلماء والفقهاء أنَّ الفقيه فَقِهَ ببركة استقبال القبلة إذ هو السنة في الجلوس إلا

عند الضرورة ، ببركة دعاء المسلمين فإن المصر لا يخلو من العبّادِ وأهل الخير والزهد ، فالظاهر أن عابداً دعا له في الليل.

فينبغي لطالب العلم أن لا يتهاون بالآداب والسنن ، ومن تهاون بالأدب حُرم السنن ، ومن تهاون بالسنن حُرم الفرائض ، ومن تهاون بالفرائض حرم الآخرة . وبعضهم قالوا بهذا حديثاً عن رسول الله (صل الله عليه وسلم) .

وينبغي أن يُكثر الصلاة ، ويصلي صلاة الخاشعين ، فإن ذلك عونٌ له على التحصيل والتعلم .

وأنشِدْتُ للشيخ الامام الجليل الزاهد الحجاج نجمِ الدين عُمُر بن محمد النسفي شعراً :

كُنْ للأوامر والنواهي حافضاً

وعلى الصلاة مواظباً ومحافظاً

واطلب علوم الشرع واجهد واستعن

بالطيبات تَصِرْ فقيهاً حافظ

واسئل إلَهك حفظَ حِفْظِكَ راغباً

من فضله فالله خير حافظا

وقال رحمة الله عليه :

أطيعوا وجدوا ولا تكسلوا

وأنتم إلى ربكم تُرجعون

ولا تهجعوا فخيار الورى

قليلا من الليل ما يهجعون

وينبغي أن يستصحب دفتراً على كل حال ليطالعه.

وقيل: من لم يكن الدفتر في كُمِّه لم تثبت الحكمةُ في قلبه.

وينبغي أن يكونَ في الدفتر بياض ويستصحب المحبرة ليكتب ما يسمع من العلماء . وقد ذكرنا حديث هلال بن يسار .

فصل

فيما يورث الحفظ
وفيما يورث النسيان

وأقوى اسباب الحفظ : الجِدُّ والمواظبةُ ، وتقليلُ الغذاء ، وصلاةُ الليل وقراءةُ القرآن من أسباب الحفظ .

قيل : ليس شيءٌ أزيدَ للحفظ من قراءةِ القرآن نظراً ، والقراءةُ نظراً أفضلُ لقوله عليه الصلاة والسلام :(أعظم أعمال أمتي قراءة القرآن نظراً) ورَأى شدادُ بن حكيم بعضَ

إخوانه في المنام ، فقال لأخيه : أي شيء وجدته أنفع ؟
قال: قراءة القرآن نظراً .

ويقول عند رفع الكتاب :

بسم الله وسبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم العزيز العليم ، عدد كل حرف كتب ويكتب أبد الآبدين ودهر الداهرين .

ويقول بعد كل مكتوبة : آمنت بالله الواحد الأحد الحق ، وحده لاشريك له ، وكفرت بما سواه .

ويكثر الصلاة على النبي عليه السلام فإن ذكره رحمة للعالمين .

[قال الشافعي رضي اله عنه] :

شكوتُ إلى وكيعِ سوء حفظي [فأرشدني] إلى ترك المعاصي
فإن الحفظ فضل من الله
وفضل الله لا يُعطى لعاصي

والسواك وشرب العسل وأكل الكُندُر مع السكر وأكل إحدى وعشرين زبيبة حمراء كل يوم على الريق يورث الحفظ ويشفي من كثير من الأمراض والاسقام ، وكل ما يقلل البلغم والرطوبات يزيد في الحفظ ، وكل ما يزيد في البلغم يورث النسيان .

وأما ما يورث النسيان فهو: المعاصي وكثرة الذنوب والهموم والأحزان في أمور الدنيا ، وكثرة الاشتغال والعلائق ، وقد ذكرنا انه لا ينبغي للعاقل أن يهتم لأمر الدنيا لأنه يضر ولا ينفع ، وهموم الدنيا لا تخلوا الظلمة في القلب ، وهموم الآخرة لا تخلو عن النور في القلب ، ويظهر أثره في الصلاة ، فهمُّ الدنيا يمنعه من الخيرات ، وهمّ الآخرة يحمله عليه ،

والاشتغال بالصلاة على الخشوع وتحصيل العلم ينفي الهم والحزن ،

كما قال الشيخ نصر بن الحسن المرغيناني في قصيدة له :

إستعنْ نصرَ بن الحسن في كل علم يُختزن

ذلك الذي ينفي الحزن وما سواهُ باطلٌ لا يؤتمن

والشيخ الامام الأجل نجم الدين عمر بن محمد النسفي قال في أم ولد له :

سلامٌ على من تيّمتني بظرفها

ولمعة خدها ولمحة طرفها

سبَتْني وأصْبتني فتاةٌ مليحة

تحيرت الأوهام في كنه وصفها

فقلت : ذريني واعذريني فإنني

شُغفت بتحصيل العلوم وكشفها

ولي في طلّاب الفضل والعلم والتقى

غنّى عن غناء الغانيات وعِرفها

وأما اسباب نسيان العلم :

فأكل الكزبرة الرطبة ، والتفاح الحامض ، والنظر إلى المصلوب ، وقراءة الخط المكتوب على حجارة القبور ، والمرور بين قطار الجمال ، وإلقاء القمل الحي على الأرض ، والحجامة على نُقرةِ القفا ، كلها يورث النسيان .

فصل

فيما يجلب الرزق وَفيما يمنع
ومَا يَزيد في العمر وَ ما ينقص

ثم لابد لطالب العلم من القوة ومعرفة ما يزيد فيه وما يزيد في العمر والصحة ليتفرغَ في طلب العلم ، وفي كل ذلك صنّفوا كتاباً ، فأوردتُ بعضَها هنا على سبيل الاختصار.

قال رسول الله (صل الله عليه وسلم) : (لا يُرَدُّ القدرُ إلا بالدعاءِ ، ولا يزيدُ في العمر إلا البر ، فإن الرجلَ ليُحرمُ من الرزق بذنب يصيبه).

ثَبتَ بهذا الحديث أنَّ إرتكاب الذنبِ سببُ حرمان الرزق خصوصاً الكذب فإنه يورثُ الفقر ، وقد ورد فيه حديثٌ خاص ، وكذا نومُ الصبحة يمنع الرزق ، وكثرةُ النوم تورثُ الفقر ، وفقرَ العلم أيضاً .

قال القائل شعراً:

سرورُ الناس في لبسِ اللباس

وجمعُ العلم في تركِ النعاس

وقال:

أليس من الحزن أنّ ليالياً

تمرُّ بلا نفعٍ وتخسر من عمر

وقال أيضاً :

قم الليل يا هذا لعلك تُرْشَدُ

إلى كم تنامُ الليل والعمرُ ينفد

والنُوم عريانا ، والبول عريانا والأكل جنباً ، والأكل متكئاً على جنب ، وكنس البيت في الليل بالمنديل ، وترك القمامة في البيت ، والمشي قدام المشايخ ، ونداء الوالدين بأسمهما ، والخلال بكل خشبة ، وغسل اليدين بالطين والتراب ، والجلوس على العتبة ، والاتكاء على أحد زوجي الباب ، والتوضؤ في المبرز ، وخياطة الثوب على بدنه ، وتجفيف الوجه بالثوب ، وترك العنكبوت في البيت ، والتهاون في الصلاة ، وإسراع الخروج من المسجد بعد صلاة الفجر ،

والإبتكار بالذهاب إلى السوق ، والابطاء في الرجوع منه ، وشراء كسرات الخبز من الفقراء ، والسؤال ، ودعاء الشر على الوالد ، وترك تخمير الأواني وإطفاء السراج بالنّفَس : كل ذلك يورث الفقر ، عُرف ذلك بالآثار .

وكذا الكتابة بالقلم المعقود ، والامتشاط بالمشط المنكسر ، وترك الدعاء للوالدين ، والتعمم قاعداً ، والتسرول قائماً ، والبخل والتقتير ، والإسراف ، والكسل والتواني والتهاون في الأمور .

وقال رسول الله (صل الله عليه وسلم) : (استنزلوا الرزق بالصدقة) والبكور مبارك يزيد في جميع النِعَم خصوصاً في الرزق .

وحسنُ الحظ من مفاتيحِ الرزق وبسطُ الوجه وطيبُ الكلام يزيدُ في الحفظ والرزق . وعن الحسن بن علي : كنسُ الفناء وغسلُ الاناءِ مجلبةٌ للغنى .

وأقوى الأسباب الجاذبة للرزق إقامةُ الصلاة بالتعظيم والخشوع، وتعديلُ الأركان وسائر واجباتها وسننها وآدابها ، وصلاةُ الضُحى في ذلك معروفة ، وقراءة سورة الواقعة خصوصاً في الليل وقت النوم ، وقراءة الملك ، والمزمل ، والليل إذا يغشى ، وألم نشرح لك ، وحضور المسجد قبل الأذن ، والمداومة على الطهارة ، وأداء سنة الفجر والوتر في البيت ،وأن لا يتكلم بكلام الدنيا بعد الوتر ولا يكثر مجالسة النساء إلا عند الحاجة ، وأن لا يتكلم بكلام لغوٍ .

وقيل : من اشتغل بما يعنيه فاته مالايعنيه ، قال بزر جمهر :
إذا رأيت الرجل يكثر الكلام فاستيقن بجنونه . قال عليّ
رضي الله عنه : إذا تم العقلُ نقص الكلام

قال المصنف رحمه الله :

واتفق لي في هذا المعنى شعراً :

إذا تم عقل المرء قل كلامه

وأيقن بحُمقِ المرءِ إن كان مُكثرا

النطقُ زينٌ والسكوت سلامةٌ

فإذا نطقتَ فلا تكونَ مكثرا

ما ندمتُ على سكوتٍ مرةً

ولقد ندمتُ على الكلام مراراً

وأما ما يزيد في الرزق :

أن يقول كل يوم بعد انشقاق الفجر إلى وقت الصلاة:
(سبحان الله العظيم وبحمده ، سبحان الله العظيم وبحمده ،

واستغفر الله العظيم وأتوب إليه) مائة مرة ، وأن يقول :(لا إله إلا الله الملك الحق المبين ، كل يوم صباحاً ومساءً مائة مرة.

وأن يقول بعد صلاة الفجر كل يوم :(الحمد لله ، سبحان الله ، ولا اله إلا الله) ثلاثاً وثلاثين مرة ، وبعد صلاة المغرب أيضاً ، ويستغفر الله تعالى سبعينَ مرة بعد صلاة الفجر ، ويكثر من قوله: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم) ، والصلاة على النبي (صل الله عليه وسلم).

ويقول يوم الجمعة سبعين مرة: اللهم أغنني بحلالك عن حرامك واكفني بفضلك عمن سواك.

ويقول هذا الثناء كل يوم وليلة : (أنت الله العزيز الحكيم ، أنت الله الملك القدوس ، انت الله الحكيم الكريم ، أنت الله

خالق الخير والشر ، أنت الله خالق الجنة والنار ، انت الله عالم الغيب والشهادة ، أنت الله عالم السر وأخفى ، أنت الله الكبير المتعال ، أنت الله خالق كل شيء وإليه يعود كل شيء ، أنت الله ديّان يوم الدين ، لم تزل ولا تزال ، أنت الله لا إله إلا انت الأحد الصمد ، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كُفُواً أحد ، أنت الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر لا إله إلا أنت الخالق الباريء المصوّر له الأسماء الحسنى يسبحُ له ما في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم.

وأما ما يزيد في العمر: البر وترك الأذى ، وتوقير الشيوخ ، وصلة الرحم ، وأن يقول حين يصبح ويمسي كل يوم ثلاث مرات : (سبحان الله ملء الميزان ، ومنتهى العلم ، ومبلغ الرضا ، وزنة العرش . والحمد لله ، ملء الميزان ، ومنتهى

العلم ، ومبلغ الرضا ، وزنة العرش . ولا إله إلا الله ملء الميزان ، ومنتهى العلم وزنة العرش . والله أكبر ، ملء الميزان ، ومنتهى العلم ، ومبلغ الرضا ، وزنة العرش .

وأن يتحرز عن قطعِ الأشجار الرطبة إلا عند الضرورة ، وإسباغ الوضوء والصلاة بالتعظيم ، والقران بين الحج والعمرة ، وحفظ الصحة ،ولا بد أن يتعلم شيئاً من الطب ، ويتبرك بالآثار الواردة في الطب التي جمعها الامام أبو العباس المستغفري في كتابه المسمى :(بطب النبي عليه السلام) ، يجده من يطله (فهو كتاب مشهور) .

[الحمد لله على التمام ، وصلى الله على سيدنا محمد أفضل

الرسل الكرام ، وآله وصحبه

الأئمة الاعلام ، على ممر الدهور

و تعاقب الأيام ، آمين .] تم

الكتاب المبارك المسمى :

بتعليم المتعلم

يا الله يا ميسّر بالعمل بما فيه

في وقت الضحى في مدرسة

سراي في بلدة

قيصرية

سنة ١١٥١

في المديرية العامة للمكتبات العامة اعطيت له رقم ايداع (١٠٤) لسنة ٢٠٢٢م.